خواطر فى الإصلاح الاجتماعى

للأستاذ عطيه مصطفى مشرفه

المحامى

لا أدّعى أننى أستطيع الإلمام بنواحى الاصلاح الاجتماعى فى هذه الكلمة الموجزة ولكنى سأحاول أن أتناول بعضها بالقدر الذى يسمح به المقام .

يتكلم الناس عندنا خواصهم وعوامهم فى وجوب بذل المال للفقراء والمحتاجين وإهداء الأقمشة والأحذية ومنح اللحم والقمح والذرة والدقيق وغيرها اليهم فى المواسم والأعياد . ويظنون أنهم بعملهم هذا يسترون من جسم الأمة عيبا ونقصا . واعتقادى أن تلك الخدمات مع ضرورتها لا يمكن وحدها أن تصل إلى الهدف المنشود كاملا . فإعطاء المال للسائل أو إطعام الجائع أو إلباس العارى مجهود ضئيل الثمرات بل هو كثير الأشواك مقضى عليه بالفشل .

فكل سائل يجب ألا يعطى ما يسأل بدون أن يبحث نوع المساعدة التى يحتاج اليها ومقدار أثرها فى حياته . وإلا فما فائدة القرش الذى يزول أثره بمجرد صرفه ويترك سائله فى احتياج إلى غيره . وما فائدة المأكولات والملابس والأغطية التى يظل السائل محتاجا أبدا إلى غيرها كلما بليت ، بل إنى لأخشى أن يبيع هؤلاء الفقراء ما منحوا كما فعلوا بالصابون الذى بذل لهم فى بعض الجهات لغسل أبدانهم . هذا إلى أن فى الإحسان المذكور إهدارا لآدميتهم وقضاء على أنفتهم وعزتهم القومية . وذلك ما لا أظن أحدا يرضاه وكان الواجب أن نتعاون جميعا على أن نبعث فيهم الرجولة والشهامة والأنفة والصبر على تحمل الشدائد .

لا أنكر أن منشأ هذه الفكرة سلسلة من العادات والتقاليد منها الورث الذى لا نسمح بعودته المدنية الحاضرة ، والفاسد الذى سدلت عليه السنون شعار النسيان ، لذلك أعترف بأنه موضوع شائك يجب أن نمر عليه محترسين حذرين حتى لا تدمى أقدامنا الأشواك ، ورأيى أن توزع تلك الأشياء على الطبقات الفقيرة بثمن بخس دراهم معدودات بحيث لا تشعرهم بأنها تقدم اليهم صدقة أو إحسانا حتى نحيى فى النفوس عزتها وأنفتها على أن تقوم تلك الجمعيات بدفع باقى الثمن .

ليس إذن فى هذا الإحسان حل للمشكلة الاقتصادية ولا تحسين لحال هؤلاء التعساء إذ أخشى أن يزيد بهذا الحل عدد السائلين بمصر ولا يحارب التعطل من العمل . لأن الاحسان هنا يكون ذا أثر سيئ فى المحسن إليه إذ يعوده الكسل والاتكال على الغير . وفى رأيى أن الإحسان

يجب أن يكون إحسانا بالأعمال والمنشآت ، وأن أعمال البر هذه يجب أن تنطوى تحت تعبير " الخدمات الاجتماعية " التى ترمى إلى معاونة الطبقات الفقيرة وتحسين حال الشعب ورفع مستواه جملة بدلا من معالجة بعض الحالات الفردية . هنا يشعر كل من منّ الله عليه ببسطة من المال أو الفكر أو القوة أو الجاه أو التجربة أن ميادين الخدمات الاجتماعية تقتضيه زكاة هذه النعم جميعها ، وأن هذه الزكاة فريضة ، فيساهم المثرى بماله والمتعلم بعلمه والأديب بقلمه والعامل بنشاطه وخبرته حسبة لوجه الله الكريم والإنسانية المعذبة والوطن لأن العمل للإصلاح الاجتماعى فرض عين .

والخدمات الاجتماعية هى معيار اليقظة الاجتماعية والبحث الحقيقى لدرجة ثقافة الأمة ، وهى كثيرة ومتشعبة ، ويجب قبل البدء فى المساهمة فيها فهم أغراضها ومراميها والقواعد النبيلة التى تقوم عليها ، لأن فى هذا الفهم وتلك المعرفة تنظيما لأعمال البر وتوحيدا للجهود .

لست أزعم أنى محيط بهذه المشروعات الاصلاحية ، لأن الحياة الاجتماعية فسيحة الأرجاء متسعة النشاط ، فقد اختصت كل جمعية من تلك الجمعيات الخيرية بالناحية التى يميل اليها مؤسسوها ، ولكنى موقن أن العمود الفقرى لروح الخدمة العامة هو تخفيف أثر الفقر لأنه هو المشكلة الاقتصادية الاجتماعية فى هذه البلاد .

يجب أن نزيد الكسب للعامل المصرى ، لأنه إذا زاد كسبه تحسن طعامه ولباسه وسكنه وإذا أراد المصلح الاجتماعى فى مصر أن يكافح هذا الوباء ويقضى على هذا المرض المزمن حقا فعليه أولا وقبل كل شىء أن يعمل لزيادة الثروة العامة وأن يزيد فى أجر الطبقات الفقيرة ، لأن الانسان بطبيعته وغريزته ميال لتحسين حالته المعيشية ، تواق الى رفع مستواه الاجتماعى بنفسه اذا تيسر له القليل من المال .

وبقدر ما يبلغ الشخص من المتربة بقدر ما يكون نجاح المصلح الاجتماعى ، وكلما زاد الفقر احتاج هذا المصلح الاجتماعى أن يبدد غياهب سحبه الكثيفة فيزيد من نشاطه وعزمه . فعلى من أراد فى مصر أن يكافح سوء الخلق والشقاء والمرض والجهل والجريمة أن يخفف عن الفقير آلام الفقر وشظف العيش لأنها صور مرتبط بعضها ببعض ومؤثرة الواحدة فى الأخرى .

إذا طلب الى أن أدلى ببعض وسائل الاصلاح للطبقات الفقيرة العاملة ، والريف ذلك الريف الذى لا أذهب اليه إلا وأعود أسفا كاسف البال حين أرى عددا ضخما من رجاله مصابين بالأمراض الطفيلية : البلهرسيا والانكستوما والملاريا التى تعجزهم عن أداء الأعمال الجثمانية والعقلية ، لقلت إنه محتاج للإسعاف السريع وإلى وجود الأعمال الوقائية ، محتاج

لإنشاء المستشفيات العمومية فى البنادر والمراكز والقرى الشاسعة والمتنقلة ، محتاج لمجهود الأطباء والزائرات الصحيات والمعاونين الصحيين حتى تتبدل تلك الوجوه القاتمة المكفهرة المغبرة وهذه الأجسام الهزيلة المتراخية بوجوه نضرة مستبشرة وأجسام صلبة زاهية فتزول صفرة الوجه ورمد العينين .

هذه الطبقات الفقيرة العاملة محتاجة إلى إنشاء الجمعيات التعاونية لإنقاذها من مخالب المرابين و براثن المحتالين والمضاربين، محتاجة إلى وطنية اقتصادية جديدة شعارها : المصرى للمصرى فتتعاون حكومة وأمة على إيجاد المصانع العصرية الآلية الكبيرة فى المدن والمصانع الصغيرة فى الريف، و بذلك تستوعب هذه المصانع أكبر عدد من العمال فتقل الأيدى العاطلة وتغنى البلاد بمصنوعات وطنية يكون فيها المنتج والمستهلك مصريين .

هـذه الطبقات الفقيرة يجب أن تربى تربية استقلالية تعتمد بها على نفسها فتشرب حب الإقدام والكرامة والاعتزاز بالنفس والمغامرة، فالأمة يجب أن تكون أمامها مثل عليا ترمى إليها وغايات سامية تسعى لتدركها ، هى محتاجة لتعميم التعليم الإلزامى والإرشاد الى تحسين برامجه ورفع مستواه وأن يقدم للأولاد والبنات الذين يتعلمون غذاء صحى .

هـذه الطبقات الفقيرة محتاجة الى من ينشئ لها دورا للتأمين من الشيخوخة و إعانة المسنين والتعويض من التعطل ومساعدة الأطفال وذوى العاهات والمعوزين فتصلح بذلك حال البائسين والمساكين من الشيوخ المتعطلين والأيتام والمشردين وأولئك الذين قست عليهم الطبيعة فحرمتهم نعمة التمتع ببعض حواسهم الرئيسية .

هذه الطبقات الفقيرة محتاجة لإمدادها بمياه الشرب النقية و إنشاء مساكن صحية لها و إنارتها و إبعاد القمامات والأوساخ والأقذار عنها، وردم البرك والمستنقعات القريبة منها والمحيطة بها وتنظيم الطرق التى تسير بها وتجميلها .

هذه الطبقات الفقيرة محتاجة الى الحذاء، فللحذاء أثر كبير فى مقاومة عدوى الانكلستوما فى البلاد المصرية، ذلك المرض الذى يفتك بنحو ٥٠٪ من المصريين و يسبب لهم فقر الدم كما يقول الأطباء .

فتولد من التبرعات الحالية التى توجتها الإرادة الملكية بالإحسان السخى عمل منظم يؤدى الى معالجة الحفاء تدريجيا فتختفى تلك الظاهرة الكريهة التى اقتضت الارادة السامية التنبيه الى مكافحتها ، إذ ما من مصرى إلا ويحرص على المظهر القومى ويملأ نفسه السرور حين لا يرى على أرض وطنه قدما حافية .

هذه الطبقات الفقيرة يجب إفهامها أن بلادنا المصرية تكاد تكون بلدا بكرا يؤتى أطيب الثمرات اذا شمر أبناء الوطن عن ساعد الجد فأصلحوا الأراضى البور فى شمال الدلتا وغيرها وساعدوا على رى مناطق أخرى من الصحراء ، واذا أدخلوا زراعات جديدة تدر الذهب والفضة عليهم وتزيد غلة الأرض وأن يحبب صغار الزراع فى شرائها بثمن مقسط زهيد .

هذه الطبقات الفقيرة يجب على المصلح الاجتماعى أن يخفف أثر الفقر فى الريف عنها بالعمل على حسن توزيع الثروة الزراعية وحماية ملكية الفلاح ، فقد دل الاحصاء على أن ١٢ ألف شخص يملكون ٣٨ ٪ من أرض مصر المنزرعة ، فتوزيع الثروة فى مصر لا بد له من اصلاح عاجل وتعديل . ولعل فى ضريبة الارباح الاستثنائية وفى ضريبة التركات تلك الضريبة التى أدت لانجلترا خدمة اجتماعية جليلة وخدمات اقتصادية متواصلة ما ييسر سبيل اليسر والرخاء فى جميع أفراد القافلة البشرية المصرية ، ولعلنا نستعين فى ذلك بثروتنا الخلقية ثروة النفس والضمير والروح التى أرجو جادا غير هازل ألا تكون مرهقة بالديون مهددة بالافلاس كثروتنا العقارية ، لأن ثروة الأخلاق إذا أفلست لم تغن عنها ثروة المال ولا ثروة العلم والأدب ، ولا ثروة الزراعة فتيلا ، فلا نستهين بالواجب وبحقوق غيرنا ، فإن الملكيات الصغيرة أمان من المذاهب الاشتراكية التى تقضى أصولها العلمية بمحو الملكية والميراث .

وحبذا لو وضعت تلك الجمعيات الخيرية القائمة بالخدمات الاجتماعية نفسها تحت إشراف الهيئات الحكومية للشؤون الاجتماعية بحيث تهيمن عليها من ناحيتها المالية فقط فتشرف على إيراداتها ومصروفاتها السنوية ، بذلك نكون قد نظمنا تلك المؤسسات الخيرية على أسس تلائم مقتضيات العصر وتوافق ما استحدثته المدنية فى حياتنا الاجتماعية .

نعم إنى أنصح بأن تكون الخدمة الاجتماعية من اختصاص الأفراد والجماعات الذين هم أقدر الناس على الابتكار والتنظيم ، وأبعد من سوء الادارة والبيروقراطية والبطء والأغراض .

فلنأخذ الحذر إذن من التدخل الحكومى فى تلك المؤسسات فى غير الوجوه المالية ، ولنعلم أن كل شعب يعتمد على حكومته فى كل الشؤون هو شعب لا يزال طفلا ولا بأس أن نستعين فى حل مشكلاتنا هذه بدعاية رشيدة مستديمة مدعمة بالآيات والأحاديث والحكم والأمثال .

عطيه مصطفى مشرفه
المحامى